معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 16/ العدد 1 (جوان 2021): ص.ص:568-583

إسهامات أبي القاسم سعد الله في النقد الأدبي

The contributions of Abi Al-Qasim Saad Allah in critical literature

سميرة قروي *

جامعة خنشلة، الجزائر، samira.garoui@univ-khenchela.dz

تاريخ الاستلام: 2021/02/18؛ تاريخ القبول: 2021/05/25؛ تاريخ النشر: 2021/06/30

ملخص:

يتراوح منجز أبي القاسم سعد الله بين آثار تاريخية وفكرية ونقدية وإبداعية وتراجم، وقد كان طول باعه في الدرس التاريخي تدريسا وتجميعا سبب تسميته شيخ المؤرخين الجزائريين وعدّه رائد المدرسة التاريخية الجزائرية.

والذي يعنينا من منجزه آثاره النقدية ونخص منها "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، و"تجارب في الأدب والرحلة" والتي نتوخى تتبع منهجه فيها، وخصائص خطابه النقدي وبخاصة في تلك الفترة التي عتّم فيها الاستعمار على الفكر واللغة والإبداع، فلولا مساعي أمثال سعد الله الذي بحث حركة تطور الأدب الجزائري لما تسنى لنا الإطلاع على المشهد الثقافي في تلك الفترة، وتتبع مسار تطوره.

كلمات مفتاحية: المشهد الثقافي، الحركة الأدبية والنقدية، المنحى الجمالي، الخطاب النقدي، أبو القاسم سعد الله.

Abstract:

Abi El-Qassem Saadallah's achievement ranges between historical, intellectual, critical, creative and translation monuments.

His long experience in the historical lesson was both teaching and compilation. The reason for his name was the Sheikh of Algerian historians and he was considered the pioneer of the Algerian historical

* المؤلف المرسل.

school, whose critical effects concern us from his creator, including "Studies in Modern Algerian Literature", and "Experiments in Literature and the Journey" in which we envisage following his approach and the characteristics of his critical discourse, especially during that period in which colonialism obscured thought, language and creativity. Were it not for the efforts of the likes of Saadallah who discussed the development of Algerian literature, we would not have had access to the cultural scene in that period, and traced its evolution path.

Keywords: Cultural scene; Literary and critical movement; Critical discourse; Abi El-Qassem Saadallah.

1. المقدمة:

لم تكن تلك الرحلة العلمية الطويلة من قرية صغيرة في أعماق الجنوب الجزائري (قرية قمار بواد سوف) التي خاضها أبو القاسم سعد الله إلى مينسوتا Minnesota بالولايات المتحدة الأمريكية مرورا بجامع الزيتونة بتونس، والأزهر الشريف بالقاهرة.. لتمرّ دون أن تمكّن صاحبها من تحويل الهامش إلى متن على قول أمين الزاوي، بعد أن حوّلته من هامشية المكان إلى مركزية الفكر والكتابة والإبداع.

فقد أسهمت بحوثه التي استغرقت زهاء ما يزيد عن نصف قرن، والتي تنوّعت بين التحقيق والتأريخ والنقد والإبداع والترجمة في إنعاش المشهد الثقافي الجزائري، بعد أن كشفت عن إرث ثقافي جزائري يزدان به الأدب العربي والإسلامي من جهة، وبعد ما أضافته إلى المكتبة العربية* من كتابات موسوعية غير مسبوقة حول "تاريخ الجزائر

*- إن المنجز الفكري للكاتب ثري جدا، ففي التحقيق نجد: "تاريخ العدواني لمحمد بن عمر العدواني"، "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" تأليف مصطفى بن إبراهيم باشا، "رحلة ابن حمادوش الجزائري - لسان المقال-" تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، "رسالة الغريب إلى الحبيب" تأليف أحمد بن أبي عصيدة البجائي، "مختارات من الشعر العربي" جمع المفتي أحمد بن عمار، "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" تأليف عبد الكريم الفكون. وفي الترجمة نجد: "شعوب وقوميات الجزائر"، "حياة الأمير عبد القادر" تأليف هنري تشرشل، "الجزائر وأوروبا" تأليف جون وولف. وفي التاريخ: "تاريخ الجزائر الثقافي (في تسعة أجزاء)، "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (أربعة أجزاء)"، "الحركة الوطنية الجزائرية (ثلاثة أجزاء)"، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث". وحول الأعلام والدراسات نجد: "رائد التجديد الإسلامي: ابن العنابي"، "شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة"، "القاضي الأديب: الشاذلي القسنطيني"، "الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري"، "شيخ الإسلام =

الثقافي" (تسعة أجزاء)، "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" (أربعة أجزاء)، "الحركة الوطنية الجزائرية" (ثلاثة أجزاء)، والتي كتبت بقلم شاهد على المرحلة السياسية والتاريخية والثقافية. وقد كان تركيزه على الحفر في الثقافة الجزائرية ينطلق من وعيه بأنّها جوهر هويّة الأمة التي جرّب معها المستعمر مؤامرات المسخ والانسلاخ، فتحرير الجزائر ثقافيا هو استكمال لتحريرها سياسيا.

وقد تفاني في ترصّد وتتبع هذا الإرث، فكان لا يتوانى عن الترحال إلى البقاع البعيدة لتحصيله، وكان منهجه في ذلك يجمع بين التأريخ والنقد والتحليل؛ التأريخ بغية تجميع هذا التراث، والنقد والتحليل بغية الغربلة والتمحيص. وإشكالية بحثنا تقوم على محاولة معرفة خصوصيات منهجه وخطابه النقدي وأهدافه التي سطّرها، وفي مسعانا لتحقيق ذلك ركزنا على عملين اثنين فقط من أعماله هما "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، و"تجارب في الأدب والرحلة"، وقد استعنا بالمنهج التاريخي مع إجراء الوصف والتحليل.

2.خصوصيات منهجه:

وعى أبو القاسم سعد الله أن المهمة الموكلة إليه والتبعة الملقاة على عاتقه كبيرة، فهو من الجيل الذي هيئت له فرصة التعلّم وتحصيل المعرفة، وأمام الظروف الخاصة للوطن كان لزاما على جيل المثقفين أن يحمل مشعل التغيير، وأن يكون "القاطرة المسيرة والقوة المحركة للنهضة الثقافية والفكرية والتاريخية في مجال التعليم والتكوين والتأهيل لدى الطلاب الجزائريين. من هنا بدأت ملامح المدرسة الجزائرية ذات البعدين الوطني والحضاري."[1] على أن هذا لم يكن حكرا على مستوى القطر الجزائري فقط، بل أقلام كثيرة على مستوى المغرب العربي عموما سعت هذا المسعى؛ فالدارس عباس الجراري - مثلا- يلتفت إلى الأدب المغربي ويحاول نفض الغبار عليه، يقول: "الغبار الكثيف يخفي

=

داعية السلفية: عبد الكريم الفكون". وفي الإبداع: "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، "تجارب في الأدب والرحلة"، "أفكار جامحة"، "النصر للجزائر"، "ثائر وحب"، "الزمن الأخضر (ديوان سعد الله)"، سعفة خضراء (قصص)".. فضلا عن عشرات البحوث والمقالات والمداخلات في المؤتمرات المتنوعة.

(1) - قنانش محمد: الاتجاهات الدينية للحركة الوطنية الجزائرية في كتابات أبي القاسم سعد الله، مجلة الحوار المتوسطي، دار الأصول للطبع والنشر، الجزائر، ديسمبر 2014، ع7، ص 14.

الكثير من تراثنا المكتوب ويتيح للأرضة التهامه، وما زال التخلّف الفكري يفرض مواقف التنكّر والإهمال والتشويه ضد التراث الذي صدر عن الشعب في جميع المجالات، وما زال الباحثون يتكبّدون من المشاق ويلقون من العراقيل ما يعوق عن الاستمرار إن لم يعق عن البدء، ولكنّا مع ذلك نرى حقا لنا أبناء هذا الجيل وحتما علينا كذلك أن نقول كلمتنا، ونضيف بها دما جديدا أو نحرك الدم القديم على الأقل."[1] فقد كان لابد على الساحة الأدبية من رسم مشهد ثقافي في المغرب العربي عموما وفي الجزائر خصوصا يواكب صنوه في دول المشرق، لذلك لم يتوان أبو القاسم سعد الله وأترابه في محاولة صنع هذا المشهد، يقول محمد مصايف: "ومما يدعم نهضتنا الأدبية، التي ستتأصل وتقوى مع الزمن، أن باحثين جزائريين داخل الجامعة وخارجها يعملون من جهتهم على نشر المجهول من تراثنا القديم والحديث، ويقومون بدراسة هذا التراث في التزام لا يقل عن التزام الأدباء المبدعين في شيء. ولا يخفى على أحد ما قام به أساتذة من أمثال: ركيبي، ودودو، وخرفي، وسعد الله، من دراسة للأدب الجزائري الحديث شعرا ونثرا"[2] على أنّه وإن توحّدت الأهداف والغايات فإنّه كان لكلّ منهم منهجه وطريقته الخاصة، والتي نتبيّن بعض ملامحها مع أبي القاسم سعد الله فيما يأتي:

1.2 التعريف بأدب الجزائر ودحض أقلمة الحركة الفكرية العربية:

انطلق أبو القاسم سعد الله من نقد تمركز البحث العربي في جزء معيّن من الوطن العربي وإهمال الأجزاء الأخرى، ما تسبب في "تمزيق الحركة الفكرية العربية وأقلمتها.. وتبعا لذلك تطورت الحركة العربية في شكل غير متساو، ولعل الجزائر خير شاهد على ذلك."[3] فقد ظنّ بعض المفكرين العرب أن الجزائر في دار غربة، واعتبروا ما جاء منها إنتاجا أجنبيا لا عربيا، وكلفوا أنفسهم عناء البحث والتنقيب والسفر في سبيل ما ينتج الآخرون، ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك ليعرفوا عن أدب الجزائر الذي حجبته ظلمات الاستعمار.[4] يقول: "بعد قدومي إلى المشرق العربي (خريف 1955) صدمني ضعف

(1) - عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول، ط2، مكتبة المعارف، الرباط، 1978، ص6.

(2) - محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 110.

(3) - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط2، دار الآداب، 1977، ص5.

(4) - ينظر، نفسه، ص 30.

العناية بأدب المغرب العربي عامة وأدب الجزائر خاصة، فأخذت على عاتقي أن أعرّف على الأقل بالأدب الأخير. وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجعني وتثير حماسي لزيادة البحث. وكانت نتيجة ذلك بعض الأشعار والأبحاث التي تناولت أدب الجزائر من جوانب مختلفة."[1] وهذا ما يؤكده عبد الله كنون الذي سعى نفس المسعى فراح يعرّف بأدب المغرب العربي ويشيد به، يقول: " والذي يتحقق يوميا هو أن الأدب العربي يتلاقى على صعيد الفكرة الجامعة والاتجاه الموحد، وأن أنصار الإقليمية ينهزمون دائما في ميدان الأدب والسياسة على السواء .. إن المغرب العربي مع ما تعرض له من "فرنسة" .. عرف جميع الأنواع الأدبية التي عرفها المشرق العربي .. "[2] وهو ما حمله على دعوة دارسي الأدب العربي إلى إيلائه اهتماما يليق بمقامه يقول: "والأدب العربي إن كان قد سجّل في تاريخه الحفيل صرخات شوقي وحافظ ومطران والرصافي والزهاوي وشكيب ارسلان وأضرابهم من رواد الشعر الوطني في القطاع الشرقي للوطن العربي فقد بقي عليه أن يسجل الصرخات المماثلة التي أطلقها زملاؤهم في القطاع الغربي.. فالمغاربة لم يقلوا عن المشارقة متانة أسلوب وعذوبة لفظ وسموا في الخيال ورقة في العاطفة. وقد أبدعوا في النثر إبداعهم في الشعر. وأكسبت حرارة العاطفة الوطنية شعرهم توهجا."[3] فمنطلق هؤلاء الدارسين وعلى رأسهم سعد الله وغايتهم الأولى كانت متعلقة بالتعريف بأهمية هذا الأدب وإخراجه من أدراج الحجب والنسيان، يقول: "يمثّل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي، ولئن حالت الظروف دون نشر هذه الصفحة أو إلقاء الضوء عليها، فإن ذلك لا يقلل من أهميتها القومية، بل ربما حفز الباحثين إلى بذل الجهود لنشرها ووضعها في مكانها من تراث الأمة العربية الأدبي، وقد كانت الفرص التي أتيحت للحديث عن الأدب الجزائري قديمه وحديثه، نثره وشعره، قليلة جدا، حتى لقد ضل بعض الباحثين الطريق، وأساءوا إلى سمعة هذا الأدب في الوقت الذي أرادوا الإحسان إليه."[4] لذلك يؤكد في بحث "شخصية البطل في الأدب الجزائري" أن "ما يزعمه بعضهم من موت الأدب والأدباء الجزائريين غير صحيح، وأن الأولى بنا أن نفهم

(1) - نفسه، ص6.

(2) - عبد الله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دت، ص9.

(3) - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائر الحديث، ص 10.

(4) - نفسه، ص20.

ذلك الزعم على أنّه عجز عن هضم الواقع واستحضار التاريخ وتفهّم الأسباب الحقيقية لحركة الأدب في الجزائر."[1] وإن كان يقرّ بضعف فنون الأدب في الجزائر كالقصة والمسرحية والنقد بسبب الاستعمار الذي أضعف اللغة العربية، ومنع الاحتكاك بتجارب الآخرين، بخلاف الشعر الذي مقارنة بها كان أكثر إنتاجا، لكن بالمقارنة مع المنجز الشعري في الشرق كان "ضعيفا من عدّة وجوه أهمها ضحالة الثقافة، والاحتفاظ بالأساليب القديمة، وقلة التيارات الفكرية."[2] وقد عمل على دحض وتفنيد مزاعم المستعمر القائمة على نفي أي ثقافة عربية إسلامية للجزائر لتأكيد تبعيتها للثقافة الفرنسية. إنّ كل هذا حمله على تفعيل المشهد الأدبي في الجزائر من خلال إبداعات شخصية من جهة، وتفعيل حركية النقد بنشر أبحاث مطوّلة عن الأدب العربي الجزائري من جهة أخرى قصد جعله مرئيا، تناول فيها أجناسا أدبية مختلفة منها القصة والمسرحية والنقد والتراجم والرسائل والشعر... وخصّ محمد العيد آل خليفة بمنجز مستقل، بيّن فيه ريادته للشعر العربي في العصر الحديث في الجزائر، وغيره من الشخصيات الأدبية الأخرى التي تلمح إليها منجزاته المحصاة في الهامش.

2.2 رصد المنجز الأدبي والثوري وصداهما:

لقد تحددت غايته في توفير مادة وفيرة من النصوص والمراجع والآراء، تشكّل ركاما إبداعيا وفكريا جزائريا، أو تلتفت إلى هذا الإبداع بالدراسة والنشر والتقييم، لذلك كان أول ما صدّر به كتابه "تجارب في الأدب والرحلة" مقال يلتفت إلى المدّ القومي العربي في احتفائه بالقضية الجزائرية عموما وإبداعات أبنائها خصوصا، وخصّصه لبحث إسهامات مجلة "الآداب" البيروتية، وجهود رئيسها سهيل إدريس في نصرة القضية الجزائرية؛ فمذ صدورها الأول سنة 1953 التفتت إلى القضية الجزائرية واحتضنتها فـ"أصبحت ديوانا يضم عن الجزائر فصولا كتبت ليس فقط عن الأدب ولكن عن السياسة والاقتصاد والمواقف الإنسانية أيضا"[3]. لقد أسهمت في ربط القارئ العربي الذي كان يجهل كل شيء عن الجزائر، بخصوصيات الثورة الجزائرية، والمنجز الأدبي فيها الصادر إما باللغة

(1) - نفسه، ص 57.

(2) - نفسه، ص 6.

(3) - أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 12.

الفرنسية مع (كاتب ياسين، مولود معمري، مولود فرعون، محمد ديب، مالك حداد، مالك ابن نبي..) أو باللغة العربية مع (أبي القاسم سعد الله، وعثمان سعدي ، وأبي العيد دودو.. وغيرهم)، لقد كانت على مدار سنوات الثورة كلّها حتى فجر الاستقلال ترصد كل منجز جزائري لتعرّف القارئ العربي به، كما كانت ترصد كل الكتابات - باللغات الأخرى- المناهضة للاستعمار الفرنسي للجزائر؛ فقد قدّمت عرضا لأول كتاب فرنسي يعرض لأصول الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ويوضّح العلاقة بين الإنسان الجزائري والفرنسيين، وهو كتاب "الجزائر الخارجة على القانون" لكوليت وفرانسيس جونسون، وقد أعربت عن امتنانها وشكرها للكاتبين. كما اهتمت بأخبار النشاط الثقافي في فرنسا، وكتابات الفرنسيين المناهضة لاستعمار الجزائر، فترجمت مقالة جان بول سارتر عن (نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر)، ومقالة (مجندون يشهدون)، ومقال (الجلادون)، وكتاب (مأساة الجزائر) للفيلسوف الفرنسي ريمون أرون، وعرّفت القراء العرب بكتاب سارتر (عارنا في الجزائر)، واحتفت بالمفكرين أمثال مالك بن نبي..

كما ركزت على مستوى الثيمات على دخول أسماء جبال الجزائر ومدنها في الشعر العربي (وهران، وأوراس..)، وأبطالها (جميلة بوحيرد، وجميلة بوعزة..)، وأوردت ما كتبه الأدباء في هذا الصدد عن المدّ الثوري وصداه، كقصيدة (أوراس) للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي والشاعر أيوب طه (التي كانت بنفس العنوان)، وقصيدة (رجال من الجزائر) لمحمود النجدي، وشعر نازك الملائكة وصادق الصائغ وحسن فتح الباب عن جميلة بوحيرد... وصدر في هذه الأثناء في القاهرة كتاب بعنوان (جميلة) يضم إحدى عشرة قصيدة، وقد راجعه علي شلش لمجلة الآداب لتتمكن من نشره. كما نشرت أعمالا تعرّف بالقضية الجزائرية كمقال عبد الحميد مهري، ونشرت مناقشة ناجي علوش لكتاب (ثورة الجزائر) لعلي الشلقاني.

واحتفت بإنجازات المبدعين الجزائريين، فكانت تخصص لهم مساحات خاصة للكتابة بشكل دوري ومنتظم؛ فقد نشرت لعثمان سعدي بحث (الأدب الشعبي والمقاومة الجزائرية)، ونشرت لأبي القاسم سعد الله الكثير من القصائد، وبعض الأبحاث النقدية كبحثه (تصميم للشعر الجزائري الحديث) و(الغزل في الشعر الجزائري)، و(البطولة في الأدب الجزائري الحديث)، و(رسالة الجمعيات والنوادي في الجزائر)، ونشرت لأبي العيد دودو مسرحية (عذابات)، ولعثمان سعدي قصة (اثنان وثلاثون طلقة) و(الشيخ حداد)

وقصة (تحت الجسر المعلّق). كما نشرت قصة أحمد عكاش (الزنزانة السابعة لم تعد تجيب) التي ترجمها عن الفرنسية الجزائري حنفي بن عيسى، ونشرت قصة هذا الأخير (حنفي بن عيسى) التي عنونها بـ(في حي القصبة). كما التفتت إلى أهم من تناولوا الثورة وأبطالها في الإبداع العربي من الشعراء كنزار قباني، شفيق الكمالي، نجيب سرور، محمد المصري، عيسى الناعوري، سليمان العيسى، حسن البياتي، علي الحلي، محمد الفيتوري، فارس قويدر.. لذلك عدّ هذه المجلة تراثا ومرجعا ومعينا للأدب الجزائري، يقول: "أعتقد أنه سيكون مفيدا كمرجع للباحثين في تاريخ الأدب الجزائري من جهة وفي وقع الثورة الجزائرية على الأدباء العرب من جهة أخرى. وقد أصبحت أفكار هذه المجموعة تراثنا في حياتنا الأدبية خلال الربع قرن الماضي. وفيها ما في التراث من الباهت والمشع."[1] وهنا يتضح لنا جانبا آخر من منهج الكاتب الذي فيما كان يعرّف بمنجزات مجلة الآداب اللبنانية وما قدمته للثورة التحريرية خصوصا والقارئ العربي عموما، كان يعرض إلى التراث الأدبي والنقدي بأقلام جزائرية، ليؤكد إسهام الأقلام الجزائرية في النهوض بالمشهد الثقافي العربي حتى وهي في أحلك الظروف وأصعبها.

3.2 تخصيص مصنفات أو بحوث لرموز الإبداع الجزائري:

إن الرغبة في إخراج كل إبداع جزائري من مناطق الظل جعلته يراوح الالتفات إلى المبدعين وأدبهم تارة من خلال بحوث مقتضبة على شكل مقالات يصدرها في دوريات خاصة، أو على شكل كتب تترجم لتاريخ المرحلة ولحياة المبدع وأدبه، مثلما فعل مع شيخ الإسلام داعية السلفية عبد الكريم الفكون، ومع رائد التجديد الإسلامي ابن العنابي، والقاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، ومع الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ومع شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، وفي الوقت ذاته يخص بعضهم بمقالات ينشرها في الدوريات والمجلات العلمية، مثلما فعل مع رائد الشعر الجزائري محمد العيد آل خليفة الذي يشيد بجهوده يقول: "محمد العيد شاعر معاصر خدم الأدب العربي في الجزائر ونهض به بعد أن كادت موجة التفرنس تبتلعه إثر الزحف الذي قامت به الثقافة الفرنسية على معالم تراثنا القومي إبان الاحتلال."[2] وقد بحث عن

(1) - نفسه، ص 8.

(2) - نفسه، ص 35.

عوامل تبوئه لهذه المرتبة والتي أحصاها في كونه قد جاء بعد أن نضج الشعر العربي في المشرق وكثرت مدارسه ومذاهبه ودخله الكثير من التجديد والتلوين على يد شعراء المهجر والمتأثرين بالشعر الغربي من المشارقة أنفسهم، وحذق شاعرنا في استثمار كل هذا. ويعلل سبب عدم تمرّده كما فعل الشابي بعد تأثرهما بمدرسة المهجر وأرجع ذلك إلى أسباب وراثية واجتماعية جعلته يكتفي بالتأثر الهادئ دون أن يرفع السلاح في وجه القديم والقدماء[1].

ومن نماذج البحوث المقتضبة التي عمد فيها إلى التعريف ببعض الشخصيات الأدبية والفقهية المغمورة، البحث الذي خصّه للأديب الشاعر المفتي مصطفى الكبابطي، عالم الحديث والفقه المالكي، الذي عاش في أواخر العهد العثماني وأوائل العهد الفرنسي، الذي نفته فرنسا لمعارضته ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة الفرنسية، والذي قاده البحث في سيرته إلى "العثور على قصيدة في رثائه، نظمها أحد تلامذته المشارقة، وهو الشاعر محمد عاقل، صاحب ديوان (لسان الشباب)، يقول: "ولما كنت أعرف أن هناك من يرغب في دراسة شخصية الكبابطي وبعث آثاره فإني أنشر اليوم هذه القصيدة التي لا أعرف أن أحدا قد أشار إليها من قبل. والقصيدة تقع في 28 بيتا.. وكان الشاعر قد ألقاها على جثمان شيخه المسجى في(1860)"[2].

4.2 استثمار بعض الأجناس والأغراض الأدبية لبحث المنحى الجمالي والتاريخي:

ومن مساهماته في النقد، التفاته إلى الكثير من الأعمال في الأجناس الأدبية المختلفة، بعد النبش لتحصيلها وتجميعها، ثم تناولها بالدراسة والتحليل والنقد والتقييم، من ذلك وقوفه على التعريف بفن التراسل في الأدب الجزائري؛ فقد التفت إلى رسائل باشوات الجزائر وعلماء عنابة، وعمد من خلالها إلى تبيين أنها والرسائل الإخوانية الكثيرة تدلّ على أن "العهد العثماني في الجزائر لم يكن كلّه جدبا يبابا بل كان في صحرائه الواسعة كثيرا من الواحات المظلّة الجميلة."[3] كما بيّن قيمتها التاريخية والأدبية؛ ففي بحثه في قيمتها الأدبية يشير إلى أسلوب الدواوين المنشأة في الجزائر خلال

(1) - ينظر نفسه، ص 43.

(2) - نفسه، ص 72.

(3) - نفسه، ص 53.

العهد العثماني، بعد أن تأكد من أن أصحاب هذه الرسائل (يوسف باشا ومحمد بكداش) لم يحررا شخصيا رسائلهما، فهناك خوجات (أو كتاب إداريون) يقومون بهذه المهمة. ومن خلال أسلوب هذه الرسائل نفذ إلى أن الكتاب كانوا على درجة عالية من المعرفة التاريخية واللغوية وأساليب المخاطبة؛ يقول: "فرغم ثقل بعض العبارات على آذاننا اليوم فإن الرسائل مكتوبة بسجع مستساغ وأسلوب رشيق وألفاظ أنيقة، بالإضافة إلى استعمال الحكم والأمثال والآيات والأحاديث والأشعار.."[1] فالملاحظ أن الدارس كان فيما يجمّع ينقد ويمحّص، ولاغرو في ذلك فهو القائل في أحد كتبه: "ولم تكن مهمة البحث تهدف إلى جمع المادة وحشرها في الكتاب بدون رأي أو تمحيص أو ترتيب. فالكتاب كما قلت يدرس الظواهر ويحللها ويعللها، كما يدرس الإنتاج ويصنّفه ويقيّمه ويناقش المؤلفين آراءهم ومواقفهم ويصحح بعض الأخطاء، فمادة الكتاب إذن ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية أو تجريدة إحصائية للإنتاج"[2].

كما التفت إلى أسلوب "مدرسة الجزائر" في العهد الفرنسي التي كان ابن أبي شنب واحدا من أبرز أعضائها، ومن زملائه فيها عبد القادر المجاوي، ومحمود كحول، والمولود بن الموهوب، وأبو القاسم الحفناوي. وقد التفت إلى هذه المدرسة من خلال رسالة ابن أبي شنب إلى محمد كرد علي، والذي كان على صلة وطيدة بالمستشرقين الفرنسيين الذين احتضنوه، فأصبح ينشر في مجلاتهم ويحضر مؤتمراتهم، بما كان يقدمه لهم من خدمات تتعلق بترجمة الوثائق، وعلى رأسهم أستاذه رنيه باسيه وهنري ماسيه، ويلتفت إلى رسالته لأهميتها التاريخية والأدبية. كما التفت إلى الرسائل الإخوانية التي يرى فيها خير معبّر على طبيعة الكاتب الحقيقية وميوله الفنية، كما وقف على رسائل ابن باديس والمتصوف الشيخ الطاهر العبيدي.

وفي بحثه في أغراض الشعر الجزائري التفت إلى ابن الشاهد الذي يعدّه من الشعراء القليلين المجيدين في العهد العثماني، ويرى أنه صاحب شاعرية قويّة "في عصر لم يعرف أي تجديد في الحياة الثقافية ولا أي تحدّ في مجال اللغة والأدب.. وقد تنوّع شعره فوجدنا له قصيدة في التوسّل إلى الله، وأخرى في مدح شيخه ابن عمار، وثالثة

(1) - نفسه، ص 52.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ج1، ص17.

في تقريض كتاب لأحد علماء المغرب، ورابعة في بكاء مدينة الجزائر بعد سقوطها في يد الفرنسيين. ويقول ب. فانسان **B.Vincent** أن ابن الشاهد "قد نظم مجموعة كبيرة من شعر الرثاء وغيره من الأغراض الاجتماعية الخفيفة التي يحب مسلم مدينة الجزائر إنشادها"[1] ويعدّ قصيدته في احتلال الجزائر التي نشرها ب. فانسان في (المجلة الآسيوية سنة 1839، وهذا مصدرها الأوحد) دليل شاعريته من جهة وموقفه الوطني الإسلامي من جهة أخرى، يقول عنها "تعتبر هذه القصيدة في نظرنا من عيون الشعر العربي الحديث في موضوعها وروحها. وهي أيضا من أوائل شعرنا الوطني والسياسي. وعسى أن يعود إليها النقاد والأدباء ويضعونها في مكانها في سجل الشعر العربي الحديث. فنحن في هذه الأعوام نتوجه إلى البحث عن تراثنا ومساهمة مثقفينا في وصف الاحتلال ورفضه. ذلك أننا لا نعرف إلى الآن من ذلك سوى قصيدة شعبية ملحونة نظمها الشيخ عبد القادر في بكاء مدينة الجزائر سنة 1830. أما قصيدة ابن الشاهد فهي حسب علمنا، أول مساهمة من الشعر الفصيح في هذا المجال."[2].

5.2 الوقوف على المنحى التاريخي للحركة الأدبية الجزائرية (المؤثرات والتيارات):

إن الجمود الذي عانته الحركة الأدبية في بداياتها ولمدة طويلة بعامل الحكم العثماني والظروف السياسية والاجتماعية، وعامل الاستعمار الذي كان "عامل تخريب وبعثرة وتحطيم لكل القيم الفكرية"[3]، فضلا عن تشتت الأدباء والشعراء واندماج بعضهم في حركة المقاومة ما شغلهم عن الأدب لذلك يقرر قائلا: "ما أبعد الأديب في ذلك الزمان من أن يدخل معركة سياسية، أو أن يحسم روحا قومية، أو أن يحفز إلى مستقبل وطني فيه عزّة وكرامة، وفيه حرية واستقلال"[4].

ولقد ارتبطت النهضة بعدّة مؤثرات منها الثقافي والاقتصادي، والسياسي والديني، ومنها المحلّي المنبعث من داخل الضمير الشعبي وحاجته إلى التطوّر، والخارجي. ولعل أهمها جميعا ثلاث مؤثرات تتحدد في:

(1) - تجارب في الأدب والرحلة، ص 110.

(2) - نفسه، ص 112.

(3) - دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 21.

(4) - نفسه، ص 21.

أ- المؤثر الغربي؛ المتعلق بالصدمة التي أحدثها الاستعمار والتي كانت "مبعث يقظة شعبية تمثّلت مرّة في المقاومة المسلحة وأخرى في النشاط الفكري"[1]، والمستقبل الحضاري الذي وعد به وصدّقه بعض ممن انجرفوا وراء تيار التغريب، ما أدى إلى "ظهور طائفة من المفكرين والأدباء والشعراء بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تجربتهم جزائرية ولكن وسائلهم واتجاهاتهم كلها غربية"[2].

ب- المؤثر الشرقي، المتعلق بالاقتداء بما في الشرق العربي من أفكار واتجاهات وتجارب إصلاحية أو ثورية أو أدبية.

ت- المؤثر الوطني المتعلق برغبة افتكاك الحرية ووقف كل ما يحقق ذلك، ما أغنى الأدب بالتجارب السياسية.

وقد حددت هذه المؤثرات تيارات الأدب التقليدية والرومانتيكية والواقعية:

أ- تحدد التيار الأول في نهج طريقة القدامى في اعتماد عمود الشعر الموروث لكن مع تكلّف وصنعة أسلوبية، وسذاجة وتقليد في المعاني الشعرية، كما تسلّح النثر بالبديع في رسائله ومقاماته، وحتى مقالاته الصحفية، وخطبه المنبرية.. وكان أدباء هذا التيار ممن "تخرجوا من مدارس الحكومة أو درسوا في الزوايا وبعض المساجد دراسات حرّة لم يخرجوا فيها عن فلك النحو والصرف والبلاغة في مفهومها القديم، ولم يتصلوا فيها من قريب أو بعيد بحياة الثقافة الغربية الحيّة التي أصبحت قريبة منهم في لغة فرنسا وثقافتها، أو بحياة الثقافة الشرقية المتطورة التي كانت تصل إليهم عن طريق الصحف والمجلات والكتب والرواة"[3]، وممن يمثّل هذا التيار أحمد كاتب الغزالي، عاشور الخنقي، المولود بن الموهوب..

ب- وتحدد التيار الرومانتيكي في من نحوا نحو نوع من التجديد الحذر، بعامل التأثر بمدرسة المهجر والديوان وجماعة أبولو، من أمثال الطاهر بوشوشي، عبد الكريم العقود، الأخضر السائحي..

(1) - نفسه، ص 31.

(2) - نفسه، ص 23.

(3) - نفسه، ص 26.

ت- أما التيار الواقعي الذي أفرزه تطوّر الحركة الوطنية وتبلور المفاهيم القومية والمبادئ الثورية، فقد كان له فرعان: "فرع عربي اللغة واضح الأهداف، شديد الارتباط بالشعب، كثير الاعتماد على الجمع بين القديم والحديث، وقد تمثّل هذا في الشعر العربي الذي نظم بين 1930-1954، وفرع آخر فرنسي اللسان، غامض الأهداف، كثير الاعتماد على الحديث، وقد تمثّل هذا في الرواية والقصة وبعض الأشعار المستمدة من صميم الحياة الشعبية، وكان ظهوره بين 1946-1954"[1].

6.2 التزام أدوات المناهج السياقية والنسقية في نقد المنجز الأدبي:

على أن هذا الالتزام لم يعلن مباشرة بل ألفيناه في نقوده للنصوص الشعرية والنثرية معا؛ فقد كان يقف على السياقات الخارجية المساهمة في إنتاج النص سواءً أكانت تاريخية أو اجتماعية أو نفسية، وقد كان هذا في تراجم الأدباء والدراسات التي يجريها لأعمالهم (مثلما فعل مع محمد العيد آل خليفة، ورضا حوحو)، وفي التحليل المباشر لهذه الأعمال، مثلما فعل في تحليله لفن الرسائل، وفي محاولة وضع تصميم للشعر الجزائري الحديث، أو في تعليل قلّة الغزل في الشعر الجزائري حيث يقول: "أول ما يلفت النظر هو العامل الاجتماعي، والذي يفيدنا من هذا ليس الحكم عليه بالرجعية أو التقدم، ولكن تدخله في توجيه الشعر وظروف الشعراء"[2].

كما يركّز بشكل كبير على الثيمات التي يشتغل عليها المبدعون، وذلك ما نراه جليا في بحثه عن شخصية البطل في فن الرواية والقصة والمسرحية والأدب الشعبي والشعر في أعمال محمد ديب "الدار الكبيرة"، "الحريق" و"المنسج"، وإدريس الشرابي "العتاريس"، وأحمد رضا حوحو "غادة أم القرى"، أو في أقاصيص أحمد عاشور "الإمام المزور"، "المعلم الساحر"، "درس في التوحيد"، وأقاصيص رضا حوحو "صاحبة الوحي"، "سي عزوز"، "سيدي الحاج"، "الشيخ زروق"، أو مسرحيات محمد العيد "بلال"، وأحمد توفيق المدني "حنبعل"، ومصطفى الأشرف "الحاجز الأخير"، أو في شعر الأمير عبد القادر، أو أحمد الباتني، وأحمد سحنون، ومفدي زكريا ..)، وفي بحثه القضايا العربية في الأدب كقضية فلسطين، والروح القومية العربية، وعظماء الشرق، والمعارك الأدبية...

(1) - نفسه، ص 28.

(2) - نفسه، ص 77.

أو في بحثه الجوانب الشكلية والبنيوية والخصائص الأسلوبية والأدوات الموقّعة للشعرية والجمالية في كل منجز شعري كان أو نثري؛ ففي مقال "تصميم للشعر الجزائري الحديث" - ومع ما لنا من مؤاخذات حوله بسبب بعض عناصره التي كانت تنطق بالتناقض الصارخ في بعض أحكامه- لكننا نجد أنّه قد وضع له تصميما خاصا يشي بنوع من محاولة التزام الدقّة في تتبّع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر، فقد بحث حركات التجديد، والموضوعات والخصائص في كل مرحلة من مراحله، مع الأعلام ونماذج داعمة يخضعها للدراسة والشرح ليسفر عن خصائص شعر المنابر (أواخر القرن إلى 1925) مع كل من (عاشور الخنقي، وعبد الرحمن الديسي، وأبي اليقظان، والطيب العقبي، محمد اللقاني، سعيد الزاهري، الهادي السنوسي، أحمد الغزالي، وخصائص شعر الأجراس (الممتد من 1925 إلى 1936)، وشعر البناء (من 1936 إلى 1945)، وشعر الهدف (من 1945 إلى اندلاع الثورة 1954)، وشعر الثورة بداية من 1954م.

7.2 بحث واقع النقد الأدبي في الجزائر ومحاولة إثرائه:

لقد كان مسعى أبي القاسم سعد الله واضحا في محاولة الارتقاء بحركة النقد الأدبي وتطويرها، من خلال نقوده ودراساته وبحوثه في كتبه أو مقالاته أو مداخلاته المتنوّعة في الملتقيات والمؤتمرات المختلفة، كما حاول بحث واقع النقد الأدبي في الجزائر لبيان أثره في توجيه حركة الأدب والفكر كدعوة ضمنية للنهوض والارتقاء به وتفعيله أكثر، بعد أن أجرى مسحة عامة حول ظروف نشأته وتطوّره في مقال عنونه بـ "محاولاتنا في النقد الأدبي" نشره في كتاب "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، وقف فيه على مراحله التاريخية ليستفيد القارئ من كل مرحلة، ويحصّل معرفة بنقادها وخصوصياتها، والملابسات المحيطة التي فرضتها، فحدّد له أربعة مراحل؛ ذكر في المرحلة الأولى نقادها من أمثال أبي القاسم الحفناوي، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، ومحمد بن أبي شنب، ومحمود كحول، وبيّن أن المرحلة اتسمت بالعكوف على اجترار القديم باعتباره تراثا قوميا، ونبذ كل جديد والتشكيك في قيمته الفنية والموضوعية، وحاول أن يبرّر ويعلّل للمرحلة بالواقع السياسي والثقافي. وحدّد في المرحلة الثانية جهود عبد الحميد بن باديس التوفيقية بين القديم والجديد، وما أضافه بدراسته للكامل والأمالي، وفي المرحلة الثالثة وقف على مساعي الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي خطى بالنقد خطوات واسعة، ليقف في المرحلة الأخيرة على الجيل الذي تخرّج على

يد ابن باديس والإبراهيمي وغيرهما، ليشيد بخصائص النقد الذي بدت عليه ملامح واسعة من التطوّر في هذه المرحلة. كما حدّد في كل مرحلة الأجناس الأدبية التي أولاها النقاد أولويات الاشتغال معللا الدواعي والأسباب، وخصائص أساليبهم، وأدواتهم وآلياتهم النقدية.

إن الجهود التي بذلها أبو القاسم سعد الله جعلته ضمن الصفوة الذين توكل لهم المهمات العظام، بمقابل القعدة من العلماء الذين "يتناولون الأمور الكبيرة بالعقول الصغيرة، والأنظار القصيرة"[1] الذين شنّع عليهم البشير الإبراهيمي تقصيرهم في واجب النزول إلى الميدان، وأخذ عليهم التزامهم بيوتهم أو مساجدهم، منتظرين إقبال الناس عليهم، متكئين على مقولة "العلم يؤتى ولا يأتي"، وهي كلمة –كما يقول- لا تصدق في كل زمان، وإنّما تصدق في علم غير علم الدين، وفي جيل عرف قيمة العلم فهو يسعى إليه، أما في زمانه وما قبله بقرون "فإنّ التعليم والإرشاد والتذكير أصبحت بابا من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنّما يكون في الميادين حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحا."[2] وهو الجهاد الذي لبى أبو القاسم سعد الله نداءه، فخلّد تلك المآثر، وابتعث الكامن والمنسي من الأدب الجزائري وأنعش المشهد الثقافي في زمنه.

3. خاتمة:

يخلص البحث إلى جملة نتائج توجز إسهامات ومنهج أبي القاسم سعد الله في خطابه النقدي، ومساعيه في إنعاش المشهد الثقافي الجزائري تتحدد في:

- ✓ محاولة مواكبة الراهن الثقافي والحضاري العربي بتفعيل حركية الأدب والنقد.
- ✓ التفاني في طلب ورصد وتجميع التراث الثقافي، الذي يشكّل هوية الأمة التي حاول الاستعمار طمسها.
- ✓ رصد إسهامات أدباء الجزائر في التعريف بالقضية الوطنية إبان فترة كم الأفواه.

(1) - آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم، أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء لرابع (1952-1954)، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص14.

(2) - نفسه.

✓ التعريف بأدب الجزائر ونبذ أقلمة الحركة الفكرية العربية، قصد وضع الأدب الجزائري في مكانه من تراث الأمة العربية الإسلامية.

✓ إخراج كل إبداع جزائري من مناطق الظل، وبحث المنحى الجمالي والتاريخي له، ومحاولة تنويع أدوات النقد وآلياته في مقاربته.

4. المراجع:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1، الجزائر، 1981.
- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط2، دار الآداب، 1977.
- قنانش محمد، الاتجاهات الدينية للحركة الوطنية الجزائرية في كتابات أبي القاسم سعد الله، مجلة الحوار المتوسطي، العدد7، دار الأصول للطبع والنشر، الجزائر، ديسمبر 2014.
- عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول، ط2، مكتبة المعارف، الرباط، 1978
- عبد الله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
- آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم، أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء لرابع (1952-1954)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- محمد مصايف، النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.